

ح ٣

٢- إيضاح مثلي

الإيضاح الثاني: والمراد بالإيضاح المثلي هو إنَّ المضمون الوارد في القرآن الكريم رغم خصوصيته يصلح بالنظر المثلي معنى عاماً يتجاوز خصوص مضمونه^(١).

وقد نزل القرآن الكريم بصريح آياته أصالةً على سبيل الأمثال.

والمعنى المثلي في القرآن الكريم على مستويات مختلفة من الدلالة:

١- مستوى الصراحة الذي يُنبّه عليه في الآية: كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾^(٢).

٢- مستوى العرض القصصي الذي يكون لأجل العبرة والعظة والتثيت، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٣).

٣- مستوى الإلهام، بمعنى أن الآية تلهم الإنسان عند حسن تأمله وتفطّنه معنى عاماً.

(١) وقد يطلق المعنى التأويلي أيضاً، إلا أن المعنى التأويلي أعم من المعنى المثلي، وسيأتي الحديث عن المعنى التأويلي في محله.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٣، وسورة الحشر: آية ٢١.

(٣) سورة هود: آية ١٢٠.

وللبسمة التي جاءت كأدب مشترك بين السور القرآنية عدا سورة البراءة بُعدٌ مثلي، وذلك لأنها وإن جاءت في حالة خاصة وهي بداية السور القرآنية، لكنها تصلح ملهمة للبداية باسم الله تعالى في كل فعل^(١)، سواء كان الابتداء بصيغة البسمة أم بصيغة التسمية لله سبحانه.

ومعنى التسمية لله سبحانه أعم من معنى البسمة:

وذلك أن البسمة تعني ذكر لفظة (بسم الله) أي كلمة الاسم تحديداً، وهي مشتقة ومنحوتة من (بسم الله)، كما هو الحال في نظائره مثل حوقل من (لا حول ولا قوة إلا بالله) وهلل من (لا إله إلا الله) وأمثال ذلك.

وأما التسمية فهي ذكر الله تعالى مع القول أو الفعل، وإن لم يُذكر فيه كلمة الاسم، فلو أن الإنسان عند الذبح قال (الله أكبر) فقد سمى الله وإن لم يقل (بسم الله)، فالتسمية أعم من البسمة.

ولا تجري التسمية إذا كان المبدوء به ذكراً لله سبحانه ككثير من سور القرآن الكريم التي تبدأ بعد البسمة بذكر الله، وكذلك الأدعية، لأن المبدوء به في نفسه تسمية لله سبحانه، فلا محل لتسمية أخرى لبداية ذكر الله سبحانه.

والتسمية المناسبة مع القرآن الكريم - في ضوء ذلك - تكون هي البسمة، لأن أوائل السور في القرآن الكريم عموماً هي ذكر الله تعالى - أي هي تسمية -، فسورة

(١) والفعل المقدّر فيها على الأرجح (اقرأ) بصيغة الأمر أو الماضي كما سيحيي توضيح ذلك.

الحمد على سبيل المثال منذ بدايتها بعد بسم الله تبتدىء بالحمد لله فهي - أي الحمد لله - تسمية لله تعالى، ولا معنى لأن يقال يُبدأ باسم الله تعالى أو يسمّى الله تعالى، فمضمونها تسمية الله سبحانه وتعالى، نعم بعض السور القرآنية ليست في بدايتها تسمية لله تعالى، كسورة المعارج التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾^(١)، فالأدب الملائم مع السور هي التسمية على وجه البسملة.

هذا، والتسمية على وجه البسملة أبلغ، لأنّ في ذكر الاسم مضافاً إلى الله تعالى وربط القول أو الفعل به صريحاً نوعاً من التركيز والاهتمام والعناية الزائدة، فإذا قلت: (أذبح باسم الله) فهذا أكد من أن تقول: (الله أكبر) أو (يا الله) أو (الله) مثلاً.

إذاً البسملة تلهم ذكر الله سبحانه بصيغة البسملة أو بالتسمية على وجه آخر في سائر الأقوال والأفعال.

ومما يساعد على هذا الاستلham أمور:

الأوّل: المناسبات التي ينتبه إليها الإنسان النابه من خلال التأمل والممارسة، ويساعد عليه التلقي النابه لمن مارس قراءة القرآن الكريم وتمعن في مضامينه ومقاصده وغاياته وقواعده وأساليبه التربوية، كما يؤشر على ذلك الارتكاز التشريعي الموافق على مثل هذا الاستلham.

(١) سورة المعارج: آية ١.

هذا، ولكن قد تعتبر هذه المناسبات مؤشراً ناقصاً في نفسها، وإنما يمكن اعتبارها عاملاً مساعداً مع النص الشرعي.

الثاني: أنه جاء في القرآن الكريم ذكر الابتداء باسم الله تعالى في موارد غير بدايات السور بما يُنبه ويؤكد الاستلham المثلي من البسملة:

١. في الرسائل الشخصية، فيما جاء من رسالة سليمان النبي (عليه السلام) إلى ملكة سبأ كما ذكرنا آنفاً.

٢. عند الركوب، كما جاء عن نوح (عليه السلام) أنه قال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(١)، فهذا بسملة عند الركوب.

٣. عند تذكية الحيوان بالصيد والذبح، قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(٢)، وقال عز من قائل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾^(٣)، وقال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾^(٤).

وقد كان ذكر اسم الإله عند ذبح الحيوان وتذكيته متعارفاً عند العرب قبل الإسلام وكانوا يذكرون أسماء آلهتهم دون اسم الله تعالى، وقد ذمهم الله سبحانه

(١) سورة هود: آية ٤١.

(٢) سورة المائدة: آية ٤.

(٣) سورة الحج: آية ٣٤.

(٤) سورة الحج: آية ٣٦.

بذلك، وقال تعالى: ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ﴾^(١)، وحرّم على المؤمنين أن يؤكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾^(٢).

بل يبدو أنهم كانوا يمتنعون من أكل ما سُمّي عليه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(٣)، وكان السبب فيه أنهم لجهلهم جعلوا مع الله تعالى آلهة وكانهم كانوا يفرضون نوعاً من الغيرة بخرافاتهم بين الآلهة وبين الله تعالى، وكأنها على حد الشخص الذي يجعل واسطة إلى رئيسٍ ويجد أحياناً أنّ التوجه إلى الرئيس مباشرة يوجب تحسس الوسيط، وقد يكون بعض الوسطاء كذلك فإذا رأى أنّ الشخص يريد أن يصل إلى الرئيس بدون توسطه فإنّه يتحسس، ويقول مثلاً: (إنك يجب أن تتصل به من طريقي، ولماذا لم تقل لي؟!)، فهم كانوا يجرون في خرافاتهم إلى إرضاء آلهتهم بالخط من الأدب مع الله سبحانه وتعالى، كما ذُمرُوا في الآية الشريفة: ﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(٤)، وتلك افتراءات عجيبة أتاحتها ذهنية ناس جهلاء توارثوها قرناً

(١) سورة الأنعام: آية ١٣٨.

(٢) سورة الأنعام: آية ١٢١.

(٣) سورة الأنعام: آية ١١٨-١١٩.

(٤) سورة الأنعام: آية ١٣٦.

بعد قرن، فنشأت من هذه الخرافات في أوساطهم وازدادت بمرور الزمن عليها وتجدرت في عقائدهم.

إذاً هذه المواد شواهد قرآنية على أنّ للبسملة في القرآن الكريم بعداً مثلياً من حيث ترجيح البسملة عند بداية كل فعل يمارسه الإنسان أو ترجيح التسمية على كل حال.

الثالث: عمل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث إنه كان يجري في موثيقه ورسائله وخطبه على هذا المثال، فكان يبدوها بالتسمية ثم بالتحميد حسب اقتضاء المقام^(١).

(١) فقد جاء عن صلح الحديبية الذي وقع في السنة السادسة للهجرة: (أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دعا الإمام علياً (عليه السلام) ليكتب بنود الصلح، فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا نعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فكتبها)، وقد ذكر أن الرسائل النبوية على أقسام: (القسم الأول: تبدأ من الهجرة إلى واقعة الخندق، وهي تحمل الطابع السياسي وتهدف إلى مخالفة القبائل على ما هي عليه من الكفر والشرك لإضعاف قريش وإحكام الحصار حولها. القسم الثاني: كُتبت رسائله ما بين عام ٥ هجرية وفتح مكة، ونرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أقوى مركزاً وأنفذ كلمة، فنراه يضع شروطاً على من يراسله: الإسلام أو الجزية مثل رسالته للمنذر بن ساوى ولا بني الجُلندي).

أمّا القسم الثالث: ما بعد غزوة تبوك، وكان النبي قد بلغ فيها أعلى درجات القوة، إذ فرض الزكاة، وبعث العُمال والأُمراء لجمع الصدقات، مثل كتبه إلى ملوك حمير وهمدان وبني كلب. والعديد من هذه الرسائل لا يزال باقياً حتى اليوم، وضاع أكثرها... ولدينا منها:

كتابه إلى المقوقس عظيم القبط بمصر، والذي اكتشف أصله المكتوب المشرق الفرنسي (بارتيلمي) في كنيسة بالقرب من أخميم بصعيد مصر، وهو موجود الآن في متحف طوب قابي بإسطنبول.

كتابه إلى المنذر بن ساوى الذي نشره المشرق الألماني فلايشر في مجلة جمعية المشرقين الألماني zomg.

كتابه إلى كسرى ملك الفرس، موجود بخزانة كتب خاصة واكتشفه الدكتور صلاح الدين المنجد.

كتابه إلى النجاشي، اكتشفه المشرق الإنجليزي (دنلوب) ونشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيانية jras الإنجليزية في يناير ١٩٤٠ م. وقد اعتنى المسلمون عناية بالغة بهذه الرسائل واحتفظوا بنسخها في أماكن خاصة، وكانت القبائل والأُسُر تحفظها تبرّكاً بها، واعتنى بها المؤلفون القدامى كعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ هـ، وعبدالله بن أبي بكر بن حزم المتوفى سنة ١٣٠ هـ، ومن بعدهم من المؤرخين... وهذه الرسائل لا يرقى إليها أي شكوك في صحتها... ولكن ماذا عن كتابها؟ (المجلة العربية، السبت ٢٠١٨/٠٨/١١، مجدي إبراهيم: مصر، عنوان المقال: الرسائل النبوية الشريفة).

وقد قيل في وصف رسائله: (كانت رسائل النبي صلى الله عليه وسلم تتألف من: رسائل وكتب أمان ومعاهدات، وكتب قسمة للغنائم وإقطاعات، وكانت تشترك جميعها في بعض الخصائص العامة، كما كان كل منها يختص بخصائص لا توجد في غيره. فالرسائل: تتشابه مع بعضها البعض، ولكن يوجد بينها اختلاف واضح وذلك تبعاً لوقتها ولمن تُرسل إليه، وعلى الرغم من وجود الاختلاف بينها كانت لها بعض خصائص، وذلك أنها تصدر بالبسملة ثم تبدأ بذكر المرسل وهو الرسول صلى الله عليه وسلم: (من محمد رسول الله إلى فلان...) وقد لا تُذكر البسملة بل تبدأ الرسالة باسم الرسول مباشرة أو يقول: (هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان) أو يبدأ الكتاب بقوله: (إلى فلان

وقد اقتفى المسلمون أثر القرآن الكريم والنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) في سيرتهم العملية في الابتداء بالبسملة في الخطب والتأليف والدرس والبحث وغيرها، ولا تزال الخطب والتأليف والبحث والمذاكرة تُبدأ باسم الله سبحانه، فأصبحت التسمية أدباً لازماً خصوصاً في الأقوال المعني بها مثل الخطب والتأليف وحلقات البحث والدرس، حتى إنّ الإنسان إذا بدأ بدون ذكر اسم الله سبحانه فكأنّه بدأ الكلام من وسطه.

وقد رُوي حديث يتضمن التصريح بذلك وهو ما روي عن أبي هريرة: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل كلام أو أمر ذي بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتى)، فهذا حديث حسن من حيث مضمونه، فهو مضمون قريب، لكنه قد لا يكون معتبراً وفق موازين النقد التاريخي والروائي.

مباشرة... وكان يأتي في صدر كتبه بالسلام فيقول للمسلم: (السلام عليك)، كما يقول لغير المسلم: (السلام على من أتبع الهدى) أو: (سلام على من أتبع الهدى)، وقد يقول: (سلام على من آمن)، أو يقول: (سلام الله عليك) أو (السلام عليكم).. كما كان يبدأ كتبه صلى الله عليه وسلم إلى من يدعوهم إلى الإسلام بقوله: (سلم أنت أو أنتم)، أو (سلام أنتم)، وقد لا يذكر السلام. وكان يعقب السلام بالتحميد فيقول: (إني أحمد إليك -إليك- الله الذي لا إله إلا هو، وربما ترك ذلك.. وقد يذكر الشهادة وقد لا يذكرها، وكان يبدأ كتبه أحياناً بعبارة (أما بعد)) (المجلة العربية، السبت ١١/٠٨/٢٠١٨، مجدي إبراهيم: مصر، عنوان المقال: الرسائل النبوية الشريفة).

وذلك: أنّ هذا الحديث لم يرد في روايات الإمامية المعروفة^(١)، كما أنه لم يرد في الكتب المعتمدة المعروفة لدى أهل السنة كالصحيحين والسنن^(٢).

هذا، وليس في قرب مضمون الرواية - بل صحته - ما يقيه من الجعل، فإنّ كثيراً من الآداب والخصوصيات يكثرُ الوضع فيها، كما يعلمه الممارس في علم الحديث، فلا ينبغي أن يجعل حسن المضمون حجاباً يمنع عن التدقيق التاريخي السني للنصوص والأقوال، بل ينبغي حفظ ذلك كله في موضعه.

الرابع: أنه قد وردت البسمة أو التسمية في السنة والروايات المأثورة في مواضع تمثل استلهاماً مثلياً من القرآن الكريم:

منها: التسمية أو البسمة عند الوضوء، كما وردت في عدة روايات، منها صحيحة محمد بن قيس عن أبي جعفر (عليه السلام): (فاعلم أنك إذا ضربت يدك في الماء وقلت: بسم الله الرحمن الرحيم تناثرت الذنوب التي اكتسبتها)^(٣). وقد وردت عند أهل السنة أيضاً روايات في ذلك^(١).

(١) رواه في وسائل الشيعة (الإسلامية): ١١٩٤/٤، عن التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري، وليس مصدراً معتبراً.

(٢) مسند أحمد: ٣٥٩/٢، وهو وإن كان نحو اقتناء للأحاديث التي رأى تجميعها، لكنه لم يكن على أساس تحري الحديث الموثوق خاصة كما هو معروف.

(٣) وسائل الشيعة (الإسلامية): ٢٧٦/١.

ووردت التسمية عند الأكل والشرب، ولبس الثياب، والمعاشرة مع الزوجة، ودخول الخلاء، ودخول المسجد والخروج منه، والخروج من البيت، والذبح، والركوب، ووضع الميت في قبره، وموارد أخرى كثيرة^(٢).

فهذه الموارد منبهات وشواهد روائية على الاستلهام المثلي من آية البسملة في القرآن الكريم من خلال النص القرآني.

ومن الملفت أنه قد ورد في حديث أئمة أهل البيت (عليهم السلام) التنبيه على هذا النحو من الاستلهام من القرآن الكريم، ففي حديث حسن رواه الكافي^(٣) بإسناده إلى يونس بن عبد الرحمن عن عبد الله بن سنان، وابن مسكان، عن أبي الجارود قال: (قال أبو جعفر (عليه السلام): إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عن كتاب الله ثم قال في حديثه: إن الله نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة

(١) فقد رووا: عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه) المجموع: ٣٤٣/١، ورووا أيضاً عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: (لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله) مسند أحمد: ٤١٨/٢، ورووا: (إذا توضأ العبد فذكر اسم الله في وضوئه طهر جسده كله وإذا توضأ ولم يذكر اسم الله لم يطهر إلا ما أصابه الماء) المصنف (ابن أبي شيبة): ١٣/١.

(٢) وكذلك وردت البسملة في فقرات من الأقوال العبادية مثل بداية تشهد الصلاة وبداية سجدي السهو وبداية بعض أدعية السجود وغير ذلك.

(٣) الكافي: ٣٠٠/٥، ح ٢، والإسناد صحيح إلى (أبي الجارود)، ولكن في الرجل لين ولا بأس بمثل هذا من أحاديثه.

السؤال فقالوا: يا ابن رسول الله وأين هذا من كتاب الله ؟ قال : إن الله عز وجل يقول في كتابه: (لا خير في كثير من نجواهم - الآية) وقال : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً) وقال : (لا تسألوا عن أشياء إن تبدو لكم تسؤكم)

وبذلك يظهر أنّ هذه الآية الشريفة التي روعي الالتزام بها في القرآن الكريم في بداية السور كجزء داخلي منها - عدا البراءة لسبب شرحناه من قبل - رغم أنها تمثل حالة خاصة، إلا أنّ لها بُعداً مثلياً ملهماً.

وإذا بني على أنّ الدلالة الذاتية للنص القرآني لا ترقى إلى درجة الاستنباط الشرعي - حذراً من الوقوع في الاستحسان - فيكفي مساعدة السنّة الشريفة على ذلك، ومن الظاهر بالتأمل والمقارنة بين ما ورد في القرآن الكريم وما جاء في السنة الشريفة أنّ بعض الاستلهمات الظرفية من الآيات الشريفة تكون بتنبية النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) وأهل بيته الكرام (عليهم السلام)، وقد تصل إلى مستوى الحجية والاتباع بهذه الضميمة النبوية.

بقي إلفات النظر إلى أنّ تأكّد الإتيان بأدب البسملة يختلف بحسب اختلاف المقامات ومقتضيات الأحوال فيها كما جاء اختلاف رسائل النبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) في ذلك، وهذا الاختلاف يرجع الى أمور متعددة بحسب كون الكلام رسالة كتبية أو خطبة أو معاهدة، وبحسب مضمون الكلام من كونه حول الدين والتوجيه الديني أو موضوعاً اعتيادياً، وبحسب وجود المخاطب وعدمه، وبحسب نوع المخاطب في كونه متديناً أو مدعوّاً الى الدين أو غير ذلك، وبحسب

تعارف البسملة فيه أو تعارف عدمه أو لا، وبحسب تلقي المخاطب من الإتيان بها أو تركها، وما يمكن أن يدخله من الوهم بذلك، إلى غير ذلك.

ولذلك ربما اقتضى مقام ما ترك البسملة، كما تركت في القرآن الكريم في سورة البراءة باقتضاء المقام لإبداء كلام صادم وحازم وقوي وشديد دون أية مقدمة، فتركت البسملة تعبيراً عن الحزم والشدة، كما بيّناه في بحث جزئية البسملة، وكذلك ترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) البسملة في بعض رسائله^(١) أيضاً.

(١) لاحظ ما تقدم - في هامش منقول سابقاً - حول رسائل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).